الدرس11:مدارس لسانية عربية وبعض جذور البراغماتية

تمهيد

قبل أن نتحدث عن المدارس اللسانية، جدير بنا أن نعرف اللسانية نفسها،فهي «العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع بعيدا عن النزعة التعليمية والأحكام المعيارية». وكلمة "علم" الواردة في هذا التعريف لها ضرورة قصوى لتمييز هذه الدراسة من غيرها، لأن أول ما يطلب في الدراسة العلمية هو اتباع طريقة منهجية والانطلاق من أسس موضوعية يمكن التحقق منها وإثباتها.

والعلم بحث موضوعة دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التي تربط بعضها ببعض، والتي تربطها بغيرها، وكشف القوانين الخاضعة لها في مختلف نواحيها.

أوّلا: المدارس اللسانية العربية

تعددت المدارس اللسانية العربية الحديثة فكانت على أربعة أنواع، وهي كالآتي1:

1-**المدرسة البيانية**:

أُسِّست هذه المدرسة على يد الأديب العباسي "الجاحظ"، وسُمِّيت بهذا الاسم لأن البيان هو المرتكز الأساسي الذي تقوم عليه، وهو ما يعبِّر عن هذه الظاهرة اللسانية الإنسانية بشكل خاص، إذ إن تبليغ هذه الأمانة التي حمّلها اللهُ للناس تتطلب منهم ما يُطلق عليه الجاحظ اسم "التبيين"، ولا شك في أن هذه الظاهرة غيبيّة ولذا كان تبيين الحقيقة أمراً واجباً فيها.[2]، يُعتبر "الجاحظ" الممثل الأول للمدارس الكلامية المأخوذة من القرآن الكريم، إذ إنه اعتمد على ما جاء فيه وقام بالتأمل في أصل الكلام وتطويره وعلاقته بالإنسان، وحاول من خلالها أيضاً معرفة الكيفية التي ينشأ فيها الكلام، وما تتضمنه الرسالة من رموز ومقام ومقال وحال، وغيرها من العناصر. لخّص "الجاحظ" أنواع الدلالات في خمس نقاط، هي بالترتيب الآتي:

اللفظ. الإشارة. العقد. الخط. النسبة.

2-**المدرسة الشمولية**

يُعتبر "السكاكي" مؤسس المدرسة الشمولية، والتي تُعد أكبر مدرسة لسانية عربية، ولم تُعرف مدرسة عربية أكبر منها ولا أوسع ولا أشمل بين الدارسين، ولقد حاول "السكاكي" في هذه المدرسة أن يصنّف

العلوم الإنسانية بطريقة شاملة، إذ صنّفها في شجرة ذات جذور متصلة وثابتة في قواعد اللغة، أما فروعها فهي تشمل شتى أنواع الكلام. وإذا نظرنا إلى التطور وجدنا أنه ينقسم إلى فرعين، هما: النحو والصرف، ثم يرتقيان إلى درجة البلاغة، فيخلف النحو "علم المعاني"، ويخلف علم الصرف "علم البيان"، وتحدث العديد من الارتقاءات والانتقالات من علم إلى علم آخر بطريقة تدريجية ومدروسة، وبنظرة شمولية، وهكذا فإن "السكاكي" في كتابه "مفتاح العلوم في البلاغة" يهدف إلى النفاذ إلى جميع العلوم اللسانية الغيبية.

3-مدرسة النظم

أسس "عبد القاهر الجرجاني مدرسة النظم، والتي تقوم على نظرية النظم، ولقد اعتمد "الجرجاني" في دراسته لإعجاز القرآن الكريم على هذه النظرية، ويُعنى بالنظم أنه الطريقة التي يتركّب فيها الكلام، وتنتقل فيه الجملة من التركيب البسيط إلى تراكيب القرآن الإعجازية الجمالية، وذلك في جميع أنواع تراكيبه، كالصوتية، والأسلوبية، والدلالية، والغيبية الإعجازية، وغيرها. ويعتمد "الجرجاني" النظم في المعاني لا في الألفاظ، كما أنه يُفرِّق بين نظم الحروف ونظم الكلم، إذ إنه ليس ليده تفضيل لنظم الحروف، على خلاف ما لنظم الكلم عنده من مزية، لأن الناظم يتتبع ترتيب معاني الكلم في النفس، في حين أن نظم الحروف يأتي بالمواضعة؛ أي بما يتعارف عليه الناس.[3].

4- المدرسة الارتقائية

أُسِّست المدرسة الارتقائية على يد "ابن خلدون"، ولقد وظّف فيها النظريةَ الارتقائية من أجل بناء نظرية التحصيل، وتشرح النظريةُ الارتقائية الطريقةَ التي ينشأ فيها المعنى عن الفعل، ونتيجة لتكرر هذا الفعل تنشأ الصفة، وإذا تكررت هذه الصفة صارت حالاً (أي صفة غير ثابتة)، وإذا تكرر هذا الحال صار ملكة، ويُعنى بها (المقام) -كما يقول المتصوفة-، يرى "ابن خلدون" أن هذه المراحل الخمسة (المعنى، الفعل، الصفة، الحال، الملكة التي هي الصفة الراسخة) تنشأ وتتطور بطريقة تدريجية، أي في عدة دفعات خلال فترات عديدة، ثم تُمكِّن هذه الفترات المتعلمَ من استعمال اللغة بطريقة تُعينه على التحكم بها جيداً.

ثانيا: جذور البراغماتية

1-تعريف البراغماتية

إنّ لفظَ كلمة براغماتية مشتقٌّ من أصول يونانيّة وتعني "عَمَل"، وتؤخذ منها كلمتا: مزاولة وعَمَلِي، ويعدّ تشارلز بيريس أول من أدخل هذا اللفظ في الفلسفة سنة 1878م، من خلال مقاله الذي حمل عنوان

"كيف نجعل أفكارنا واضحة"، وقد أشار فيه إلى أنّ عقائدنا هي في الواقع قواعد للسلوك والأداء، وكلّ ما نحتاجه لإنشاء معنى لفكرة ما هو أن نحدّد أيَّ سلوكٍ هو الأصلح لإنتاج هذا المعنى، وكي تكونَ الفكرة واضحة، فكلّ ما يجب أخذه بعين الاعتبار هو ما يترتّب عليها من آثار ذات طابع عمليّ ومن الممكن تصوّرها.[4]

البراجماتية هي فلسفة تشجع الناس على "أن يبحثوا عن الطرق و أن يفعلوا الأشياء التي تحقق اهدافهم بشكل أفضل، لمساعدتهم على تحقيق غاياتهم المرغوبة."

2-جذور البراغماتية

وتعود جذور البراجماتية إلى فترة العصر الكلاسيكي، عندما رفض الأكاديميون فكرة وجود حقيقة مُطلقة يمكن تحقيقها. إن البرجماتية أو الذرائعية ثورة ضد الفكر النظري البعيد عن الواقع وعن الإنسان خاصة والذي لا يخدم الإنسان في حياته العملية. أما كلمة (برجماتية) فكانت قليلة الاستعمال في اللغة الإنكليزية ولم تكن تستعمل مطلقاً في سياق الحديث الفلسفي، حتى أدخلها الفيلسوف الأمريكي بيرس عام 1878م كقاعدة منطقية: معرفاً البرجماتية بأنها النظرية القائلة: "بأن الفكرة إنما تنحصر فيما نتصوره لها من أثر على مسلك الحياة". وقد استعار وليم جيمس ورفاقه الذرائعيون هذا المصطلح وأعطوه معاني جديدة تأسس المذهب في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم انتقل إلى أوروبا وبريطانيا بشكل خاص.

لم تَلقَ كلمة براغماتية رواجًا كبيرًا عندما وظّفها بيريس لأول مرة في مقاله الفلسفيّ، لكن بعد بعد مرور ما يقارب العشرين عامًا بدأت كلمة براغماتيّ تنتشر على صفحات المجلات،5 لكنّ فَهْمَ البراغماتية كمعنى قائل بأنّ الحقائق قائمة على النتائج ممّا يعني عدم ثباتها سيعود بنا إلى الفلسفة اليونانية وفكرة هيراقليطس بأنّه لا شيء ثابت والحقائق تتغيّر، والحقائق المطلقة ليست موجودة على أرض الواقع، فكل شيء في صيرورة، وقد انتشرت البراغماتية كمذهب فلسفيّ له أصوله في الولايات المتحدة الأمريكية ومنذ بدايات القرن العشرين، وتعدّ من أسس النظام الرأسمالي القائم على المنافَسة الفرديّة.6

ثالثا:مبادئ الفلسفة البراغماتية

إنّ الفلسفة البراغماتية تقوم على مجموعة من المبادئ التي تعدّ أساسًا لها:

***حيازة الأفكار الصحيحة**

يعتقد فلاسفة البراغماتية بأنّ حيازة الفكرة الصحيحة هي بمعنى آخر حيازة أدوات للعمل، والأداء لا تقدّر بثمن، وأنّ واجبنا للوصول إلى الحقيقة يجب أن يسوغ بموجب أسباب عمليّة ودواعي عمليّة بارعة

وفائقة، كما أنّ الوصول إلى الحقيقة ليس هدفًا في ذاتِه، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، ولا تزيد عن كونها وسيلة أو أداة أوّليّة لبلوغ ضروب مختلفة من السّعادة والرّضا والسرور.

*** النفعية**

تنبغي الإشارة إلى علاقة النفعيّة بالبراغماتية، فالفكرة الصحيحة هي فكرة نافعة بالضرورة؛ وذلك لأن المقام أو المأوى الذي هو موضوعها أو هدفها نافع، ويترتب على ذلك أن القيمة العملية للأفكار الصحيحة تشتق بصفة أولية من الأهمية العملية لموضوعاتها.

***الواقع أو التجربة هو المقياس لأي نظرية أو فكرة**

تقوم النظرية البراغماتية في المنهج على أن المنهج التجريبي هو النّموذج الذي يجب أن تسير عليه في كلّ ممارسة ديموقراطية، فلا وجود لديموقراطية مثاليّة كشكل من أشمال الحكم فحتى الديموقراطية تجربة اجتماعية ونمط حياة].

رابعا: مؤشرات الفكر البراغماتي

للفكر البراغماتيّ العديد من المؤشرات أبرزها:

أ-نجاح العمل هو المعيار الوحيد للحقيقة: ففي كلّ خطوة يؤخذ بعين الاعتبار النتائج المستقبلية، ويدعو للتصرّف على أساس النظر إلى النتائج العملية والمثمرة التي قد تؤدي لها قراراتنا التي نتخذها في حياتنا، سواء كانت على الصعيد الشخصي أم المهني أم غيرها من الأصعدة..

ب- القدرة على التكيف في مواجهة التصلب: ومن خلال التفكير العمليّ نصبح أكثر قدرة وقابليّة للتكيّف مع الأحداث الطارئة، بعيدًا عن الأحكام المسبقة التي من الممكن أن تسيء فَهمَنا للأحداث التي تقع حولنا..

ت- الابتعاد عن الدوغمائية: إن الدّوغمائية تعني التمسّك بفكرة معيّنة على نحو متعصّب ومتصلّب والاعتقاد الجازم بصحّتها، من غير الانفتاح على باقي الأفكار المطروحة حولنا، فما يتميز به الشخص البراغماتيّ هو أنّه شخص منفتح الذهن وحرّ أمام الإمكانات المتاحة له وأهم الأمو التي تلفت البراغماتية نظرنا التطلع إلى المستقبل: إليها هي عدم الرجوع إلى الماضي والتفكير المرهق فيه بل التطلّع إلى المستقبل، كما أنّها ترفض الأحكام المسبقة.

ث-**التجريبية في مواجهة المثالية:** كلا التيّاريْن -التجريبيّ والمثاليّ- من أبرز التيارات التي ظهرت في الفلسفة الحديثة وذلك لتأسيس نظرية في المعرفة ونظرية في الوجود فكيف استطاعت البراغماتية

الاستفادة من التجريبية والمنهج التجريبي ض المنهج العقلاني والمثالية؟ إنّ البراغماتية ترفض المفاهيم الكلية والأيديولوجيات التي تقوم عليها، والتي تعتبِر أنّ هناك محركًا أعلى ومفهومًا متعاليًا للحقائق وهو مطلق ومحدّد سلفًا.

خامسا: أشهر أعلام الفلسفة البراغماتية

1- تشارلز بيريس تشارلز ساندرز بيريس: وُلد في عام 1839م وتوفّي سنة 1914م، وكان بمثابة أول فيلسوف أمريكي يخرج على العالم بفكر جديد يبلور فيه الحياة العقلية كما تمثلت في القارة الجديدة، وهو الذي خلق الفلسفة البراغماتية خلقًا، ثمّ بلغ بها غاية كمالها، حتى جاء بعده التابعان الكبيران االلذان سارا على نهجه، وهما: وليم جيمس وجون ديوي ولم يسعهما إلّا أن يتحركا في الإطار الذي وضعه

2- وليم جيمس: ولد وليم جيمس عام 1842م وتوفي في عام 1910م وهو طبيب وله إنجازات في علم النفس، كان له اهتمامات في الجانب العلمي والجانب اللاهوتي، أما الجانب العلمي فقد كان يقربه من النزعة المادية، ومع ذلك فهذا لم يبعده عن مفاهيم ذات صلة باللاهوت والعاطفة الدينية وعلاقة الفلسفة بالدين.

3- جون ديوي: هو عالم وفيلسوف ولد عام 1859م كان له تأثير كبير في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال فلسفة التاريخ وكان أستاذًا للفلسفة في شيكاغو، ودَرّسَ التربية الجمالية البراغماتية وفلسفة الفن والنظرية السياسية يعرف بتوجهاته الليبرالية كنظرية سياسية.

الهوامش

1- سامي عوض، النظم من سيبويه إلى الجرجاني، ص 6. بتصرّف.

2- ربيعة بابلجاج، ملامح تعليمية اللغة عند ابن خلدون، ص 81-82. بتصرّف.

3- ربيعة بابلجاج، ملامح تعليمية اللغة عند ابن خلدون،ص:82.بتصرّف.

4- وليم جيمس، البراجماتية، ص: 65. بتصرّف.

5- وليم جيمس، البراجماتية، ص:66. بتصرّف.

6- رنا الشويعر وسهام العصيمي، الفلسفة البراغماتية، ص: 6. بتصرّف.